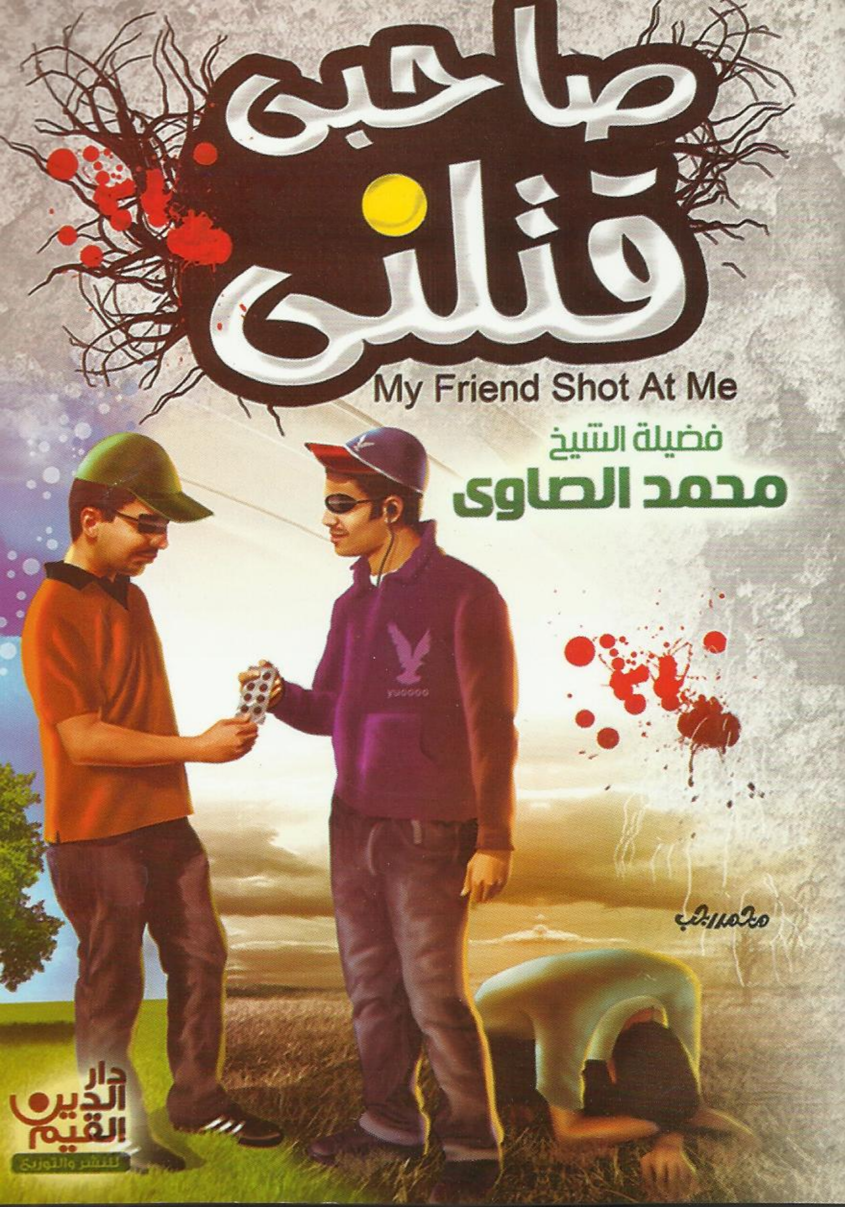
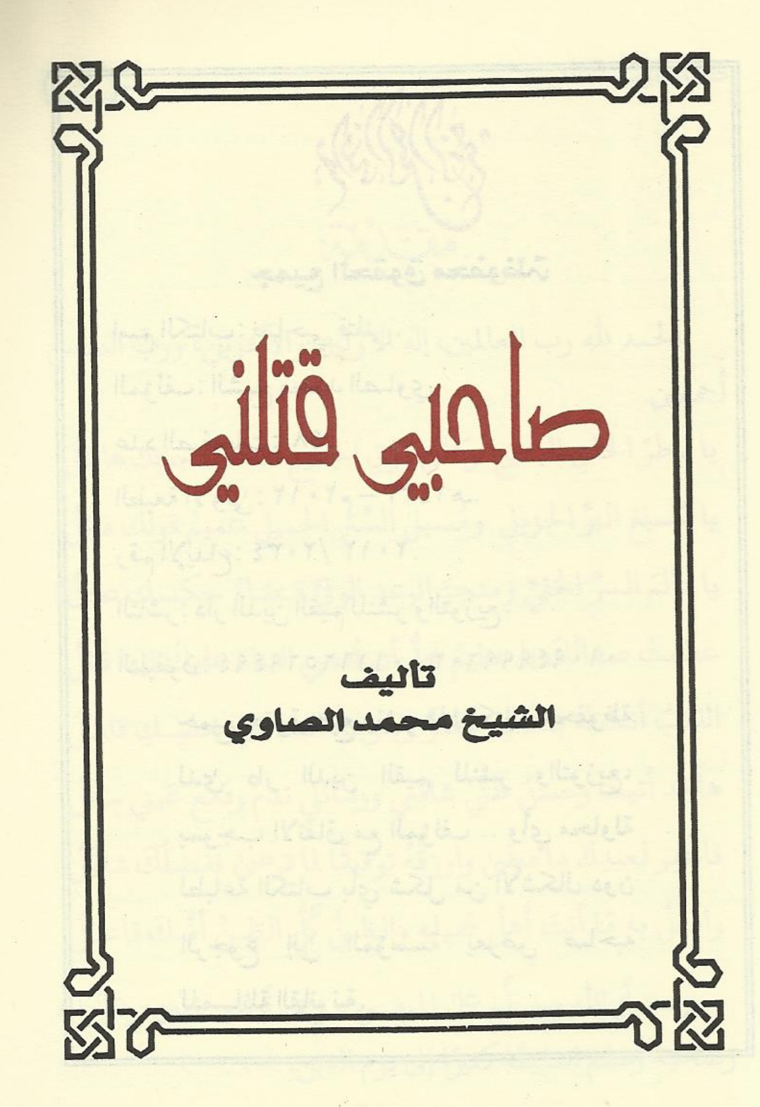

صاحبي قتلني
My Friend Shot At Me
فضيلة الشيخ
محمد الصاوى
دار الدين القيم
للنشر والتوزيع



صاحبي قتلني

تاليف

الشيخ محمد الصاوي



اسم الكتاب: صاحبي قتلني.

المؤلف: الشيخ محمد الصاوي.

عدد الصفحات: ٤٨.

الطبعة الأولىٰ: ٢٠١٢م - ١٤٣٣هـ.

رقم الإيداع: ٢٠٣٤/ ٢٠١٢.

الناشر: دار الدين القيم للنشر والتوزيع.

التليفون: ٠١١١٦٥٦٩٤٩٤-٠١٠٩٤٩٩٩٦٠٢

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، إلهِ الأوَّلين والآخرين، وربِّ الناس أجمعين.

يا فاطرَ الخلقِ البديعِ وكافلَ رزقِ الجميعِ سحابُ جودكَ هاطلُ
يا مُسبغ البرِّ الجزيلِ ومُسبل السَّترِ الجميلِ عميمُ قولك قائلُ
يا عالمَ السرِّ الخفيِّ ومنجزَ الوعدِ الوفيِّ قضاءُ حكمكِ عادلُ
عظُمتْ صفاتُكَ يا عظيمُ تجلُّ أن يُحصي الثناءَ عليكَ فيها قائلُ
الذنبُ أنتَ له بمنِّكِ غافرٌ وبتوبةِ العاصي بحلمِكِ قابلُ
ها قد أتيتُ وحُسنُ ظنِّي شافِعي ووسائلي ندمٌ ودَمعُ عَيني سائلُ
فاغْفِر لعبدِكَ ما مضىٰ وارزقْهُ توفيقًا لما ترضىٰ فَفضلُكَ شاملُ
وافْعَلْ به مَا أنتَ أهلُ جَميلِهِ والظنُّ كُلُّ الظنِّ أنَّكَ فاعلُ

وصلَّى الله وسلَّم علىٰ المبعوث رحمةً للعالمين، وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلىٰ يوم الدين.

وبعد:

أيها الأخُ الحبيبُ أنتَ من القلب قريبٌ، جمَعَتني بك رايـة الإسلام، ووحَّدتْ قلبينا واحةُ الإيمان، هات قلبك لأبُـثَّ لـك حديث الصادق المحبِّ.

ألقِ بالدنيا وراء ظهركِ، انسَ كلَّ همومك وآلامـك، ودَعْنَـا نركبُ سويًا سفينة الإِخاء.

فمـا أجمـل العـيش في ظـلِّ أخـوَّةٍ صـالحةٍ صـادقة، تـأمر بالمعروف وتدل عليه، وتنهىٰ عن المنكر وتحذِّر منه.

اليوم..

نعـم .. اليـوم أُلـقي عليـك حـديثَ الذكريـات، ويحـدثكُ صدري المليء بالأشجان الكثيرة والزفرات، فحـديثُ الـصُّحبةِ عجيبٌ، ودرب الأُخوَّة غريبٌ.

كم من صـديقٍ تَنـدَّم علىٰ مـصاحبة صـديقٍ، وكـم مـن خليلٍ تألَّم مـن مجالـسة رفيـقٍ، وفي المُقابـل أيـضًا كـم مـن صاحبٍ ما زال يحمد الله سبحانه علىٰ صحبة صالحٍ، وكـم مـن جليس يشكر الله ﷻ علىٰ معرفته بجليسه المؤمن الطائع.

أغمضوا أعينَكُم، واحبسوا أنفاسكم، فإليكم حديث الأحزان، لرفقةٍ ظنُّوا أنهم سلكوا طريق السعادة، أو ساروا على درب الهداية، لكنهم أغواهم الشيطان فعاشوا حياة البُؤس والشقاء، ما ذاقوا فيها حلاوة ولا هناء، رحل بعضهم عن الدنيا وما نفعتهم لذاتها، وفارق زوجته وأولاده، وزملائه وخلانه؛ وهو يتقلب في قبره لا أنيس ولا جليس ولو نطق لقال:

يا شباب الإسلام إياكم وصديق السوء كم حطم أصدقاء السوء من أُسَر، وكم فرّقوا من مجتمعات وكم هدموا من أخلاق وحسنات.

صدمة خالد ..!

كان هناك صديقان في الشر يجتمعان في أغلب الأيام على التدخين والشيشة ومشاهدة القنوات، وفي كثير من الأحيان يصطادان فريسة من فتيات المسلمين -ولا حول ولا قوة إلا بالله-، بلغ حبهما لبعضهما أن كل واحد يأخذ من مال صاحبه ما شاء ويصرف ما يشاء، يلبسان ثياب بعضهما، يركب كل واحد منهما سيارة صاحبه، ويذهب بها في أي وقت شاء، بل كان مع كل واحد منهما نسخة من مفتاح سيارة صاحبه الآخر.

يدخل أحدهما بيت الآخر ويستأذن على أهل بيته ليجلس في مجلسه أي وقت شاء، يشاركان بعضهما في أي مخادمة أو مشكلة، ولو استلزم الأمر ضرب الخصم وإراقة دمه.

ومضت حياتهما على هذه الحال، كل واحد يزيِّن لصاحبه المعصية والسوء، لكنهما مع كل هذا كان لا يشعران بالسعادة

ولا براحة ولا طمأنينة، لقد سلكا جميع الطرق، لقد طرقا جميع الأبواب فما وجدا بُغيتهما.

وفي يوم من الأيام أخبر أحدهما صاحبه أنه ذاهب للمنطقة الشرقية لغرض ما، وأنه سيعود في اليوم التالي، كان ذلك الصاحب يثق في صاحبه ثقة عمياء مطلقة، فكان يستأمنه على كل كبيرة وصغيرة.

.. وفي الطريق اتصل ذلك الشاب «خالد» على صاحبه «أحمد»: «السلام عليكم، ما الأخبار يا «خالد»؟ سأحضر غدًا في الظهر. ردَّ «أحمد»: «أنا في انتظارك».

كانت الساعة الثانية عشر في تلك الليلة، وفجأة وجد الباب يطرق على «أحمد»، أسرع «أحمد» بفتح الباب، وإذا بـ«خالد» عند الباب يبتسم: «غير معقول، كيف خدعتني بهذه السهولة».

تعانقا ثم دخل «أحمد» إلى المجلس تبادَلا عبارات الترحاب والثناء.

قال «أحمد»: «أمهلني يا «خالد» دقائق حتى أجهِّز لك برَّادًا من الشاي. ثم أعرف أخبارك في هذه الرحلة السريعة».

ذهب «أحمد» إلىٰ المطبخ، وجلس «خالد» متكئًا، وسحب الهاتف إلىٰ جواره وبدأ يتصل علىٰ بعض الأصدقاء، كان الوقت متأخرًا، فكان أغلب الشباب إما في جلسات أو استراحات.

فكان لا يرد علىٰ هواتف المنازل سوىٰ الأمهات المتذمرات الغاضبات من هذه المكالمات المتأخرة. كان يعتذر ويقول: قولوا له إذا رجع، «خالد» يسلم عليك.

أغلق سماعة الهاتف وبدأ يتأمل فيما حوله، وفجأة قطع عنه ذلك التفكير رنين جرس الهاتف.

نظر «خالد» إلىٰ الجهاز الكاشف للأرقام، فإذا هو رقم هاتف بيتهم، تعجب «خالد»! «سبحان الله، من يا تُرىٰ يتَّصل في هذه الساعة المتأخرة من الليلِ أنا هنا، ولا أحد يتصل علىٰ «أحمد» سواه».

دارت في رأسه الشكوك والظنون .. عزم علىٰ ألا يتكلم ..

رفع السماعة بلطفٍ وضعها علىٰ أذنه فإذا هو صوت أخته علىٰ السماعة تقول: «أهلًا حبيبي «أحمد» .. !!

لم يجيبها، لم يتمالك نفسه أغلق السماعة مباشرة، وهي تصرخ: «أحمد» .. «أحمد» ..

عاد «أحمد» من المطبخ يحمل براد الشاي، وجد «خالد» متغيِّرَ اللون، منتقعَ الجبين، عليه علامات الحزن والألم.

«خالد»: «ماذا أصابك؟!»

لم يجبه «خالد»، ثم قال: «أريد أن أستأذن يا «أحمد»».

«خالد»: «لماذا؟ ألا تريد شرب الشاي معي؟ ربما أحد كدر خاطرك، لكنني أعدك أن أنتقم ممن أغضبك يا «خالد»».

قال: «أرجوك دعني وشأني» ..

ثم فتح الباب وخرج، ليسطر قصة المأساة، يوم أن فجعه صديق عمره في أخته -ولا حول ولا قوة إلا بالله-.

هكذا صديق السوء أيها الأحباب، يتمنىٰ الصاحب أن يجالسه في الدنيا علىٰ المعاصي والشهوات، ثم يندم يوم القيامة وربما تندم ذلك الصاحب وذلك الصديق في الدنيا قبل الآخرة.

قال الله جل وعلا: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٨].

يا سبحان الله .. !

كان في الدنيا يقول له مرَّ عليَّ بسيارتك، تعالىٰ نذهب سويًا إلىٰ الاستراحة، دعنا نشاهد الفيلم أو المباراة، والآن يوم القيامة يتمنَّىٰ أنه لم يستجب، يتمنَّىٰ أنه لم يسلك طريقه، يتمنَّىٰ أنه لم يكن له صاحب ولا صديق: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ [الفرقان:٢٨-٢٩].

أنتَ تدري أيها الشاب، أنتَ تدرك جيدًا أن صديق السوء هو سبب هلاكك، فلماذا تصرُّ علىٰ صحبته إذًا؟ ولماذا تركض ورائه ..

لك عقل يعلم الخير من الشر، ولك عين ترىٰ بها، وتبصر بها طريق النفع والضرِّ، ولك قلب تحسُّ به، وتميز بين الحق والباطل .. فاحذر.

احذر .. قبل أن تأتي في اللحظات الأخيرة، ولا ينفع الندم، وتقول: «صاحبي قتلني».

لقد دخل النبي ﷺ كما في «الصحيحين» علىٰ عمِّه أبي طالب، وهو في اللحظات الأخيرة من حياته، وهو في النزع الأخير،

يعاني سكرات الموت وينازعها، وكان عنده من أصدقاء السوء: أبو جهل وعبد الله بن أبي أُمَيَّةَ، فقال له النبي ﷺ: «يا عمّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»، فقال أبو جهلٍ، وعبدُ الله بن أبي أميَّة: أَتَرغبُ عن ملَّةِ عبد المطلب.

فأعاد النَّبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- المقالةَ فلم يزال يصرُّ على كلامه، حتى قال آخر ما قال: أنا على ملّة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.

يا سبحان الله .. !

انظر أيها الأخ الحبيب حقد أولئك وحسدهم، حتى في لحظات الموت يحرصون على إبعاد الإنسان عن الإسلام، وعن الشهادة، وهم يعلمون صدق محمد ﷺ وحرصه على هداية عمِّه، ويعلمون أيضًا حبَّ عمِّه له، ويدركون أنَّ النَّبيَّ ﷺ يعرف معنى هذه الكلمة، فَيُوفِي وعدَهُ له ويحاجه بها عند الله جلَّ وعلا، لكنَّها القلوب السوداء، والرفقة السيئة، التي تخذل في أشد اللحظات.

كان خلا باسما حال الحياة ثم أضحى ثعلبًا عند الممات
قبح الله صديق السوء لم ألقَ منه غير بؤس أو شتات

سامحيني يا أختي

أمسك توفيق بشهادة الثانوية العامة فرحًا مسرورًا لا تكاد عيناه تصدقان الدرجات العالية التي حصل عليها..

قفز في الشارع بسرعة، وجعل يمرُّ بين بيوت القرية، حتىٰ وصل إلىٰ بيتهم..

فتح الباب، ودخل سريعًا، ورمىٰ بجسده النحيف في حضن أمه الحبيبة، وجعل يُقبِّلُها من خديها ورأسها، وهو يقول: «أبشركِ يا أماه، أبشرك يا أماه، فقد حصلت علىٰ مجموعِ ٩٩٪ في الثانوية العامة».

لم تتمالك الأم دموعَ عينيها، جلستْ تضمُّ ابنها الوحيد إلىٰ صدرها، وتدعو له بالتوفيق والفلاح، قالَتْ لَهُ: «أنت مُوَفَّقٌ، علىٰ اسمك يا توفيق».

قال لها: «يا أُمَّاه، أخيرًا تحققَّ الحُلْم، وسأدخل كليَّة الطب وسأتخرج طبيبًا، وأداويكي من جميع الأمراض، وستكوني دائمًا بصحة جيدة».

قالَتْ له الأمُّ المقعدة: «بارك الله فيكَ يا ولدي، ولا حرمني الله منكَ».

كان «توفيق» يسكن مع أمه المَشلولة ووالده العجوز، وأخته الوحيدة التي تكبره بسنةٍ واحدةٍ فقط، وبدأ «توفيق» يُحقِّقُ حلمَهُ، وبدأ بتقديم طلبه إلىٰ كلية الطب في البلد البعيدة عن قريتهم، وتم قَبول طلبه، ورجع إلىٰ قريته حتىٰ موعد الدراسة.

وأشرقت شمس صباح ذلك اليوم الذي سيودِّع فيه أسرته الصغيرة، حمل حقيبة سفره، وحمل ثيابه وأدواته، وعند باب المنزل نزلَتْ من عينيه دموع الوداع، قبَّل والده ووالدته وأخته وخرج، وقال: «سأتصل علىٰ دُكَّان جارنا في كل أسبوع؛ لأبلغكم بالأخبار».

ولكن بدأت رحلة المعاناة، وصل إلىٰ المدينة، وسكن في أحد المساكن القريبة من كُلِّيَته، كان جميع المقيمين في ذلك البيت من زملائه في كلية الطب، ولذلك لم يجد «توفيق» صعوبة في التعرف عليهم، لكنه كان يجد منهم تقصيرًا كبيرًا في الصلوات المفروضة، وربما سهروا لساعاتٍ طويلةٍ ومتأخرة من الليل، فكان يتجنَّب الجلوس معهم قدرَ الإمكان،

ويحرص علىٰ أداء صلاة الجماعة في المسجد المجاور لسكنهم.

مرَّتِ الشهور سريعًا و«توفيق» يتقدم في دراسته للأمام، يحوزُ الدرجات العالية، ويحصل علىٰ العلامات الكبرىٰ، حتىٰ نال إعجاب معلميه وزملائه، وكان يطمئن من حين لآخر علىٰ والديه وأخته.

حتىٰ جاء ذلك اليوم الذي دخل فيه ذلك الشاب «وائل» إلىٰ البيت وسكن معهم في إحدىٰ الغرف المجاورة لـ «توفيق».

كان «وائل» معروف بصوت مسجله الذي ينبعث منه الغناء الصاخب، حاول «توفيق» نصحه أكثر من مرَّةٍ لكنه فشل، في يوم من الأيام طرق «وائل» باب غرفة «توفيق»، ففتح «توفيق الباب»، ابتسم «وائل» وقال: «أريدك أن تشرب عندي شاي الليلة فسوف يأتي مجموعة من الشباب وسيعجبونك كثيرًا» واستجاب «توفيق» للطلب واجتمعت المجموعة في تلك الليلة علىٰ الضحك.

ووجد «توفيق» معهم أُنسَه لبعض الوقت، وتواعد علىٰ الخروج معهم إلىٰ إحدىٰ الاستراحات.

وفي نهاية الأسبوع خرجوا للاستراحة وتبادلوا الأحاديث الكثيرة، فكانت الشيشة تنتقل بينهم، وكان «توفيق» يرفض مشاركتهم، غَمَزَ «وائلٌ» بعينيه لأحد الحاضرين، فقال ذلك الفتى: «سأدخل لأجهز لكم شاي لذيذًا ستنسون أنفسكم معه».

ضحك الجميع، وبعد دقائق عاد الذئب بنظراته المريبة يحمل برَّاد الشاي، شرب الجميع وبدأت الدنيا تتغير في عيونهم، وظلُّوا يتبادلون الضحك، واستلقوا على ظهورهم، بعضهم غاب عن الوعي، وبعضهم بدأ بالسعال الشديد.

كان ذلك نتيجة لتلك الحبوب الصفراء التي ألقاها ذلك الخبيث في برَّاد الشاي.

انتهت تلك الليلة وعاد كلًّا إلى غرفته، وفي الصباح أحس «توفيق» بألم شديدة في رأسه وفي يده، طرق باب غرفة «وائل» وقال: «أرجوك ساعدني يا «وائل» في الوصول إلى المستشفى، فرأسي يكاد ينفجر من الألم».

فقال «وائل»: «لا تخاف عندي دوائك».

ولمعت عيناه ببريق الخبث والدَّهاء، ودخل إلى مطبخ غرفته الصغيرة، وسريعًا أعدَّ كوبًا من الشاي المُنعش،

وبعد دقائق أحس «توفيق» بالراحة، وتعجب، وسأل «وائل»: «ما الذي فعلتَهُ؟»

ابتسم «وائل» ابتسامته الصفراء الباهتة، وقال: «هذه خلطة الشاي العجيبة».

ومرَّتِ الأيام سقط «توفيق» في شباك المخدرات، أَسَرَتْهُ تلك الحبوب، هدَّتْ من قواه، وشحُبَ وجهه، ومال إلى السواد، ونسي في زحمة الشهوات أمه المسكينة ووالده الضعيف وأخته الحبيبة.

لا، لا تسألوا عن توفيق
فهو الآن في شباك تلك السموم

مرَّتِ الأيام ووقع في شباك الزنا والبغاء، فأصبح كل أسبوع له صيدًا ثمينًا من فتيات المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

مرَّتْ سبعة أشهر كاملة، تدهورت فيها حالة «توفيق»، فُصِل من الجامعة بسبب غيابه المتكرر، وتدنَّى مستواه الدراسي، ونسي في خلال هذه الأشهر السبعة والده ووالدته وأخته، وأصبح في هذه المدينة مجهول الهوية، يبحث عن الشهوة واللَّذة فحسب.

يا الله .. !!

نسي قريته الجميلة، نسي مسجد الحي القديم، نسي بيتهم المتواضع، ونسي تلك الحارة الجميلة، وأصدقاء الطفولة، ونسي مدرسته الثانوية، وزملائه في التوعية الإسلامية، نسي لحظات السعادة التي كان يجدها، نسي كل شيء حتى جاء يوم الألم، حتى جاء يوم الخوف ..

وصل إلى مكان الاستراحة التي يقعون فيها في الفاحشة، استقبله أحد زملائه، وقال غاضبًا: «لماذا تأخرت يا «توفيق؟»».

أسكتَهُ «توفيق»، وقال: «ماذا عندك؟»

فقال: «لقد حصلنا تلك الليلة على فتاة جميلة، وقد انتهينا جميعًا منها، وقد جاء دورك الآن، وهي في الغرفة الأخيرة».

سار بخطواته المتهالكة حتى وصل إلى باب الغرفة، فتح الباب ودخل، وأغلقه ورائه بإحكام، التفت إليها وزاد خفقان قلبه، وتسارعت النبضات، كانت تلك الفتاة تجلس في زاوية الغرفة، وقد وضعتْ رأسها بين ركبتيها، وجلست تبكي، فأقبل إليها وشعر بشيءٍ ما يجذبه نحوها، ثم أنحنى إليها، وهو يقول: «هيا يا حبيبتي» ثم رفع رأسها بيده وكانت الصاعقة..

«لا .. لا .. أختي ؟! كيف جئتِ إلىٰ هنا؟»

انهار بجانبها، وقالت له: «يا أسفي عليك يا «توفيق»، تركتنا.. نسيتنا .. نسيتَ الصدر الحنون الذي كان يضمك كلما أحسست بالألم، نسيت أمنياتك التي كنت تخبرني بها.. نسيتَ القلب الذي كان يحمل عنك همومك.. نسيتَ لحظات السعادة في بيتنا الصغير.. أبوك مات قبل خمسة أشهر، وأمك أصيبت بشلل كامل، وأنا أصبحتُ وحيدة لا معيل لي، ولا مشارك، فجمعت بعض المال وسافرت إلىٰ المدينة الكبيرة لكي أسأل عنكَ في كليتكَ، فأخبروني أنك فُصلت من الجامعة قبل سبعة أشهر، فزاد ألمي وحزني، وسرتُ أبحث عنك في كل مكان، وأسأل عنكَ في مجمعات الشباب وإسكانهم، حتىٰ جاء ظهر أحد الأيام، وركبتُ إحدىٰ سيارات الأجرة، ووقعت في أيدي الأشرار، وفقدت طهري وحيائي، وها أنت الآن تريد تدمير ما بقي من حياتي، يا حسرتي علىٰ أخي، يا حسرتي علىٰ أخي .. يا حسرتي علىٰ أخي».

فصاح بأعلىٰ صوته:

«لا يا أختاه سامحيني .. سامحيني يا أختي».

خُـــذي قلـــبي إليـــك ومزقيـــه
خُـــذي مـــا أحتويـــه واحتويـــه
خُـــذِي إن كان يرضـــيك احـــتراقي
فلـــم أملـــك ســـواه لتأخذيـــه
خُـــذِيني واجـــرحي مـــا شـــئتِ لَكِـــن
دعي لي خـــــاطري لا تجرحيـــــه
وإِنْ شـــئتِ اجرحيـــه وخـــضبيني
بلـــون دمي وإن شـــئتِ اســـحقيه
كرهـــتُ العـــيش مـــا أقـــساهُ عيـــشًا
دهـــاليز المَذلَّـــةُ تحتويـــه
أَيَـــا أَختـــاهُ كيـــفَ أتيـــتِ هـــلَّا
غَضـــضتِ الطَّـــرفَ عـــن عَفَـــنٍ كَريـــهِ
رأيتُـــكِ فَاقـــشعَرَّ الجِـــلدُ هَـــولًا
وَثَـــار القَلـــبُ يَـــصرخُ فاســـمعيه

طعنـتُ حَـشا حَيائِـك فاعـذُريني

هـو الـشَّيطانُ يغـوِي مقتفيـه

وهَـلْ تُطفـأَ بعـذرك نـارُ قلـبي

أبيـتُ أبيـت لا لا تَعذُريـه

فـصاحتْ مِـن أسَـاها وَا عَفَـافي

ووا عِـرْضِي وَوَا شَرَفي وتَـيْهي

يَكـادُ أخي يكمـلُ هَـدمَ طُهـري

ويغـرسُ حربـةَ الأرجـاسِ فيـه

ألا يـا خيبـةَ البـصرِ المُغـشَّى

بِـأحلامٍ تَطـولُ بِمُرتجيـهِ

أتيـتُ أراه هَـل أمْـسَى طبيبًـا

فأبْـصَرتُ الخَنَـا بيـدي سـفيهِ

وحُمِّلْـتُ المَواجِـعَ مُـثقلاتٍ

بأنـات العـذاب ومـا يَليـهِ

وَمَــن يـــرمي الحـــرامَ فَـــسوفَ يُـــرمَىٰ
بـــهِ فِي أهلـــهِ أو فِي بنيـــهِ
أَيَـــا أَمَّـــاهُ ابنـــك وجـــه ســـوءٍ
ولـــو أبـــصرته لَـــمْ تَعرِفيـــهِ
أَيَـــا أَمَّـــاهُ ابنـــك صـــارَ عبـــدًا
لـــسادَاتِ الهـــوَىٰ لَـــنْ تُدركيـــهِ
أَلَا لَيـــتَ المَمـــاتُ يُبـــاعُ إِنَّـــا
إِذَنْ بِالمـــالِ وَالدَّمِ نَـــشتريهِ

يا بؤس أصدقاء السوء، يا خسارة حياتهم، يركضون خلف الدنيا وشهواتها، وَيَبيع أحدهم من أجل لذاته صُحبَةَ عُمُرٍ كاملٍ، فأي صُحبةٍ تلك الصُّحبَة، وأي إخاءٍ ذلك الإخاء.

أيها الأحباب:

إن كلَّ صُحبةٍ لا تقوم علىٰ طاعة الله؛ فإنها إلىٰ الفرقة والخلاف، ويوم القيامة تنقلب تلك المحبة إلىٰ عداوةٍ، ويوم القيامة تتحول هذه المودة إلىٰ بغضاء، فاسمعوا ماذا يقول الله

جل وعلا: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف:٦٧-٦٨].

فلا يبقىٰ ولا يدوم في ذلك اليوم إلَّا خُلَّة المتقين والمؤمنين، الذين جعلوا إخائهم علىٰ طاعة الله سبحانه.

فيا شباب الإسلام..

انظروا ماذا يجني الإنسان من صاحب لا يحافظ علىٰ الصلاة؟

ماذا يجني الإنسان من صديقٍ لا يغضُّ بصره عن الحرام؟

ماذا يجني الإنسان من خِلٍّ يتلفَّظ لسانه بالسباب واللعان وكل قول فاحش؟

ماذا يجني الإنسان من صديقٍ يبحث عن الشهوات فقط؟

هل تظنون أنهم يعيشون بجوار بعضهم عند الأزمات؟

لا يدخل أحدهم فلا أحد يزوره من زملائه وأصدقائه، يعلمون أنه بمصيبةٍ فلا يمدُّون له يدَ العون والمساعدة، بل والله هم كالذئاب الضارية، متىٰ سمحت لهم الفرصة انقضوا علىٰ فريستهم.

* * *

لا تموتي يا أسماء

«يوسف» فتىً متواضع وَقورٌ، جميع المُعلمين يحبُّونه ويقدِّرونه، يحمل في صدره همة كبيرة وعالية، والده أحد التجار المشهورين، وأخته الكبرىٰ «أسماء» معلمة طيبة، مشهورة بحرصها علىٰ الخير والطاعة، وبقية الأخوة والأخوات هو ممن يشار إليهم بالبنان في العلم والأخلاق.

تشرق شمس يوم أول الاختبارات النهائية، ويذهب الجميع إلىٰ قاعات الامتحانات، وكعادة «يوسف» يذاكر مع بعض زملائه وأصدقائه في منزل أحدهم، وتعدُّ لهم الوالدة الحلوىٰ والمعجَّنات والشاي المُنعش.

كان الدور في هذا اليوم أن يذاكر في منزل «عبد العزيز»، فهم يتحرَّجون منه؛ لأنه صديق جديد علىٰ مجموعتهم، ولم يلتحق بمدرستهم الثانوية إلا متأخرًا، وكانوا يعلمون عدم استقامته وتفريطه في الصلاة والطاعة، إلا أنهم كانوا يتهاونون بصحبته، وكان يرونها شيئًا عاديًا.

كان الاختبار في مادة الفيزياء، وانهمكوا في مراجعة القواعد وتطبيقها، حتىٰ جاءت الساعة الواحدة ليلًا، وأراد البعض أن يستأذن من «عبد العزيز» لتأخُّر الوقت، فرفض «عبد العزيز» متعلِّلًا أن اجتماعهم ينشطه ويشجعه علىٰ المذاكرة.

وبدأ النوم يغالب عيني «يوسف»، ولمَحهُ «عبد العزيز» وهو يتثاءب، مرت لحظات وأراد «يوسف» الخروج، وقال: «المنهج طويل وأنا بحاجة للراحة، فلعلي أن أنام في منزلنا، وأطلب من أمي أن توقظني قبل الفجر لأكمل المذاكرة والدراسة».

قال «عبد العزيز»: «يا مجنون أتضيع عليك الوقت، وأنت في أمس الحاجة للدقيقة الواحدة، وعندي لك الحل والعلاج».

نظر الجميع إلىٰ «عبد العزيز» باستغراب، وقالوا في نَفَسٍ واحدٍ: «وما الحل يا ترىٰ»؟

قال: «الحل في المنشطات الطبية، فهي تقوِّي البدن، ولا تضرُّ بالإنسان».

هَمْهَمَ بعضهم، وقالوا: «لا تزعجنا بغرائبك يا «عبد العزيز» نحن نخاف أي شيء جديد».

قال لهم: «أنتم لستم برجالٍ، ولـو كنـتم رجـالًا لجـرَّبتم علىٰ كل الأحوال».

تحمَّس أحدهم وقال: «أنا رجـل وعلىٰ اسـتعداد لتنـاول أي شيء من الحبوب والمنشطات التي تعطينـا إياهـا»، وأخـذ مـن «عبد العزيز» حبَّةً بيضاء وابتلعها، وأتبعها بكوب مـن المـاء، مرت دقـائق كان الجميـع في صـمت، ثـم بـدأ زمـيلهم يـتكلم، ويقول أشعر بنشاط عجيب، لقد حفظت القاعـدة الفلانيـة، والمسألة الفلانية، وعرفت الحل الفلاني، و...، و...

تشجَّع الجميع، وتناولوا تلـك الحبـوب، ومـرَّت الأيـام الأولىٰ وكان الجميع يظُنُّ أنه قد وفِّق في الامتحانات بسبب هذه الحبوب.

مرَّ الأسبوع الأول، وبدؤُوا يطلبون من عبد العزيـز كميـة أكبر، وحبوب ذات مفعول أقوىٰ، وسـقط الجميـع في مـستنقع، وكان أكـثرهم مـالًا «يوسـف»، كان هـو الكـريم الذي يـدفع لـ «عبد العزيز» بعض الأحيان نيابةً عن زملائه.

انتهـت الاختبـارات، وكانـت النتيجـة لا بـأس بهـا، وكانـت الإجازة وبدأ السهر وبدأت رحلة المعاناة، كانوا يجتمعـون كل ليلـة في بيت أحدهم علىٰ لعب الكمبيـوتر ومتابعـة أفـلام المـصارعة،

وغيرها من الأفلام، وتردَّد الحال فجرَّبوا الدخان وجدوه لذيذًا، وزينه الشيطان لهم.

كانت «أسماء» تلاحظ تغير حال أخيها «يوسف» في الفترة الأخيرة، وكانت تحاول البحث عن السبب، لقد أصبح يتأخر عن المنزل، وهو أكبر إخوته الذكور، وبدأت تشم رائحة الدخان في ملابسه وثيابه، وذات يوم دعته إلىٰ غرفتها، وبدأت تلاطفه بحديثها الجميل، قالت: «يوسف» «أتدري ما الخبر؟».

قال لها: «ما الخبر؟».

قالت: «لقد تقدَّم إليَّ عريسٌ جميلٌ، فهل أنت مستعد لزواجي في نهاية العطلة؟ أريدُكَ أن تكون بطلًا ترفع من رأسي في عُرسي». فتبسمتُ لَهُ، وقال لها: «أبشري يا أختي»، ثم أسدَتْ له بعض النصائح، وحذَّرَتْهُ من رفقة السوء.

مرَّتِ الأيامُ وتردَّىٰ حال «يوسف» أكثر، ضربه والده أكثر من مرة عندما علم أنه يسرق أمواله من ثيابه ومن خزانة النقود في المنزل، غضب «يوسف» ورفع صوته وخرج من البيت، وقال: سأترك لكم البيت، لن تروني بعد هذه الليلة أبدًا.

مرَّتْ لحظات الليل شديدة علىٰ «يوسف»، ثم عاد إلى المنزل فليس للإنسان إلا أهله، ودخل غرفته بهدوء وأغلق الباب وراءه، وجلس يبكي، فقد تعوَّدَ علىٰ تلك الحبوب وهو في حاجة إليها الآن، وليس معه مال، عاد إلىٰ زملائه طردوه، بصقوا في وجهه، وأبغضوه، قالوا: «أنت حقير، ولن نعطيك بالدين، سدد الدين الذي عليك أوَّلًا ثم نعطيك حبوبًا أخرىٰ».

كانوا يزيدونه همًّا وغمًّا عندما يخبروه بأنواع جديدة من الحبوب قد نزلت، وأصبحت متداولة بين الشباب، فيزداد حسرة وألم، قال أحدهم: «لِمَا لا تطلب مالًا من أختك المدرِّسة».

فقال «يوسف»: «لا أستطيع، ستسألني لأي شيء تريد المال، ثم إني قد أخذتُ منها مالًا كثيرًا».

قال الآخر بخُبْثٍ: «عندي فكرة أفضل، لم لا توقعها في شر هذه الحبوب حتىٰ تصبح هي مدمنة، وحينها ستصرف عليك وعلىٰ نفسها».

سكت «يوسف» وبدأ يفكر..

يا الله ..

يا الله، أختي، إنها شريفة لم يستطع أن يدخلها معه في هذه الهموم والمشاكل، لكنه الشيطان وأصدقاء السوء، وهذه السموم، كل هذا جعله يقدم علىٰ تلك المصيبة.

فكَّر كثيرًا، وفي اليوم الثاني ذهب لأخته بعد صلاة العصر وطلب منها أن تُعدَّ له شاي، فأعدت له شاي وبدأ هو وهي في الحديث عن زواجها وعريسها، ثم طلب منها كوب ماء فذهبَتْ، أخرج من جيبه تلك الحبة السريعة الذوبان والقوية المفعول، وضعها في كوبها وحركها بسرعة حتىٰ ذابَتْ تمامًا، وجاءت وأعطَتْهُ الماء، وبدأَتْ تُكمل حديثها وهي تشرب من كوبها.

مرَّتْ دقائق عدَّة، بدأت الدنيا تظلم أمام عينها، ثم غابت عن الوعي، صاح «يوسف» وظنَّ أن أخته قد ماتت، حاول جاهدًا إفاقتها، وبعد نصف ساعة تقريبًا، أفاقت وهي تسعل بشدة، كان «يوسف» وقد أغلق الغرفة عليهما حتىٰ لا يراها أحد، وبدأت تقول متعجبة: «لقد شعرت كأنني أحلق في السماء، ما الذي حدث لي يا «يوسف؟»» سكت وقال: «لا أعلم».

لما جاء الليل بدأ الصداع يعود لرأسها، طرقت عليه باب غرفته فلم يرد، ففتحت الباب فلم تجده، سارت كالمجنونة تبحث عن أي مخرج عن أي دواء أو علاج في آخر الليل، فتح «يوسف» الباب ودخل، هرعت إليه أخته: «أرجوك يا «يوسف» ساعدني، منذ العصر وأنا في ألم شديد من بعد ذلك الشاي، أصدقني القول، ماذا وضعت فيه، أرجوك .. أرجوك».

قال: «هذه حبوب منشطة ومقوية».

رَمَتْ في حضنه محفظة نقودها، وقالَتْ: «أرجوك خذ ما تشاء، وأتني بكمية منها، فإن رأسي يكاد ينفجر من الألم».

ففرح فرحًا شديدًا.

ومرَّتِ الأيام، وبدأت أخته أسماء تسقط في الهاوية، كانت تلك الحبوب تأخذ منها بشراهة، وتغيَّر حالها، نسيت الزواج ومواعيده، وأضاعت أموال كثيرة، بدأت تسلك نفس طريق أخيها، فصارت تأخذ من أبيها أموال، وباعت بعض من ذهبها حتى أصبحت بلا مال.

وفي يوم من الأيام احتاجت لتلك السموم، واحتاج لها أخيها، فلم يجدا مالًا، فذهب لأحد أصدقاء السوء،

وقال: «أرجوكم ساعدوني»، فلم يأبه به أحدٌ ولا مجيبٌ.

قال أحد أولئك الأشرار: «لن نعطيك حتىٰ تأتي بأختك إلىٰ هنا لنأخذ منها ما نشاء».

صرخ «يوسف» في وجهه، وقال: «وهل أنا قذر لهذه الدرجة حتىٰ أفعل ذلك؟».

قال ذلك الخبيث: «وماذا سيضرك ما دمت ستحصل علىٰ ما تريد؟ اعرض عليها الأمر فقط».

فلما عاد إلى المنزل أخذ يفكر..

يا الله..

يا الله.. بهذه السهولة أبيع عِرض أختي الشريفة، أختي المصونة، صحيح أنا السبب في إيقاعها في تلك السموم، لكن العِرض عِرضي ليس بالسهل ضياعه.

دخل المنزل، فأسرعت إليه: «ها.. معك شيء.. معك شيء؟»

قال: «لا، رفض الأوغاد أن يعطوني شيء».

دخلَتِ الغرفة وبدأتْ تتقلب علىٰ سريرها كالمجنونة،

كانت تشد شعر رأسها، كانت تصرخ وتبكي، فكر «يوسف» وقال: «لقد عرضوا عليَّ أمرًا».

أسرعَتْ تقول: «وما هو؟».

قال: «شرطوا أن تذهبي معي إليهم، ليستأنسوا بجلوسك».

قالت : «بسرعة، بسرعة، أنا مستعدة الآن».

لبستْ ثيابها ووضعَتْ عباءتها، وذهبت معه في ذلك الوقت لهناك.

وهناك يا شباب استحلَّ الأوغاد العفاف والطُّهر بسكين الغدر، وأصبحت «أسماء» الشريفة عاهرةً، أصبحت «أسماء» المصونة ليست المصونة، نسيت كل شيء كانت تحلم به: زوجها الجميل، بيتها، كرامتها ، طُهرها وعِفَّتها.

وأصبح «يوسف» الذئب الذي يبيع عِرض أخته ليشبع شهواته، ويحصل على لذاته.

ومرَّتِ الأيام وأسماء تخرج مع أخيها داعيةً أنها تذهب إلى السوق، وهي في أحضان أولئك الطلاب، لتأخذ السموم منهم، وأصبحت الأحوال أسوأ وأسوأ. فهي في مشاكل متعددة وخصام دائم.

وفي يومٍ من الأيام وبعد صلاة المغرب رنَّ الهاتف، رفع الأب السماعة، كان صوت أحد ضباط الشرطة، كان يطلب فيه حضوره إلىٰ قسم الشرطة.

وهناك عاينَ الأبُ المسكينُ مأساةَ الأسرة، لقد كانت تلك الابنة غاية في الأخلاق والطُّهر، لكنها تعاطت مع أخيها وزملائه جرعة كبيرة من المخدرات، فودَّعت الحياة، فهرب الأوغاد من الوكر، وظلَّ أخوها بجوارها يصرخ: «أنا السبب، لا لن تموتي يا «أسماء»، لن تموتي يا «أسماء»، لن تموتي يا «أسماء».

وهناك علمت الشرطة بالقضية، فأصبح يصرخ:

«يا ناس.. أصدقاء السوء..

يا ناس.. أصدقاء السوء..

لقد حطَّموا مستقبلي .. لقد حطَّموا حياتي ..

لقد قتلوا أختي .. كانت ستدخل حياة السعادة بعد شهرٍ واحدٍ، كانت ستدخل أيام الأنس بعد أيام، كانت ستنجب الأولاد، كانت..، وكانت..، وكانت..».

لكن يا شباب الإسلام ..

يا من تفضلون أصدقاء السوء ..

يا من تظنُّون أنكم على خير ..

والله .. والله .. والله ..

ما أردى بشباب الإسلام وفتيات المسلمين سوى أصدقاء السوء، فإن نبينا محمد ﷺ قال كما في «الصحيح»: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ والجَلِيسِ السُّوءِ، كَحامِلِ المِسْكِ ونَافِخِ الكِيرِ؛ فَحَامِلُ المِسْكِ إمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وإِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْه رِيحًا طَيِّبَةً، ونَافِخُ الكِيرِ إمَّا أَنْ يُؤْذِيكَ رِيحُهُ، وإِمَّا أَنْ يَحرِقَ ثِيَابَكَ».

فلماذا لا نتَّعظُ؟ ولماذا لا نعتَبر؟ لا يا شباب لا ، قبل أن يقول أحدٌ:

«صاحبي قتلني».

* * *

بداية قصتي

كانت تلك الفتاة تدرس في الثانوية، كانت جميلـةً، الجميـع يحبها، كانت تسمع صديقاتها وهنَّ يتحدثْنَ عن الحب والغـرام فلا تبالي، لكنها كانت تعيش في بيتهـا فـراغًا قـاتلًا، فـالجميع مشغول بأمور حياته، وهي لا أحد يسأل عنها.

إحدىٰ صديقاتها من أصدقاء السوء كانت تحـاول جاهـدة أن تُعرِّفها علىٰ أحد الذئاب، فأعطتها رقم جوَّاله أكثر مـن مـرَّةٍ، وكانت تقـول لهـا، كلميـه وسـتجدين الـسعادة، وكانـت هـدىٰ تتهرب دائمًا.

وفي يومٍ من الأيام كاد الفـراغ يقتُلُهَـا في غرفتهـا، رفعـت سـماعة الهـاتف واتـصلَتْ، وبـدأ الـشيطان يفـتح أحـضانه، لتُكتَب قصة مأساة فتاة.

وفي يومٍ من الأيام دعاها لتشاهد بيـت الزوجيَّـة الـسعيد، وهناك أصبحَتْ كالمَشلولة، نال منها ما نال، وسلب منهـا أغلىٰ ما تملك، قالت: «والزواج؟».

قال: «لا أتزوج من امرأة ليست بِشريفةٍ».

سقطت تلك الفريسة ضحية، يوم أن غفل الأب والأم وفقدت التربية واستخدم أصدقاء السوء حيلهم الخبيثة.

كانَتْ بدايةُ قصتي و بداية الخَطب الجَلَل
أني جلستُ بغُرفتي حَيرىٰ يُحاصِرنُي المَلل
كَفِّي علىٰ خدِّي و قد شخَصَت منَ الهمِّ المُقَل
والشعرُ بين أصَابعي وبِكفِّي الأُخرىٰ انسَدل
كان الفَراغ مُخيِّمًا حَولي يُراقب في وَجَل
أمِّي تجاهدُ أخوَتي وأبِي تَشَاغل بالعَمل
والكلُّ يجرِي فِي مَصالحِه و قد غفَل الأهل
جاءَ الفَرَاغ بحُلَّةٍ سوداءَ تَنبذها الحُلَل
وعَليه ألفُ عِمامَةٍ وبها تَخَفَّىٰ وَانتحَل
سأَل الدَّعِي ولَيتَه مَا كان يَا قَومي سَأل
مَالي أراكِ حزينَةً تَتجرَّعين لَظىٰ العِلل
عِندِي الدَّواءُ لمَا بكَ فدَعِي التقاعُس والكَسَل
قُومِي تَعالِي جرِّبي مَا قد أقُول بِلا جَدَل

كُـوني خَلِيلَـةَ عَاشِـقٍ فِبـه ينـبَلِج الأَمَـل
لَا تَخجَـلي أَبَـدًا وهَيَّـا كلِّميـه إِذا اتَّـصل
واصبخت اسمَع هَاتفي والقَلب يُخفِق في وَجَل
ومضيتُ أَخطُو نَحوه ولقد غَفلْتُ ومَا غفَل
وأجَبتُه وسَكتُّ أَسمَع مَا يُقَال مِن الغَزَل
وهمَستُ أَسأَله أتعشَقُني فقَال: أَجَل.. أَجَل
ولَسوف نَرسِم قِصَّة مِن حُبِّنَا تَغدُو مَثَل
بَدَأتُ يَا أختي أكلِّمُه إِذا مَا اللَّيل حَل
وتَساقَطَتْ مِنِّي الفَضَائل واستَحىٰ مِنِّي الخَجَل
حَتَّىٰ أَتىٰ يَومٌ بهِ نَجمُ الطهَارَة قَد أفَل
قَال الخَبيثُ: مَتىٰ اللِّقَاء فَإِنَّ ذَا لا يُحتَمَل
هِي سَاعَةٌ أو نِصفُها إِن شِئتِ أو حَتَّىٰ أَقَل
لَا تَرفُضِي لا تَرفُضِي فَالرَّفض يقطَع مَا وصَل
وخرَجتُ يَا أختِي وقَابَلتُ الخَبيثَ وقَد جَدل
ومَضىٰ بِنَا حَتَّىٰ أَتينَا وَكرَه وبِهِ دخَل
وذَهبتُ ألحقَه ومَا أيقَنتُ أنِّي في زَلَل

ودخَلتُ يا أختِي وأبصَرتُ الحبيبَ وقَد رَحَل
ووجَدْتُه ذِئبًا يُصارِعُني وصِرتُ أنَا الحمَل
وتمَكَّنَ الذِّئبُ الخَبيثُ وصَارَ جسمِي فِي شَلل
ورمَقتُه والدَّمع مِن عينَاي يا أختِي انهمَل
وعَواصِف الآهَات تَخنقُني وهَمِّي قَد ثَقُل
آهٍ.. وآهٍ.. ثُمَّ آهٍ.. مَا سَأفعَل؟ مَا العمَل؟
قلتُ: الزوَاج فقَال: لَا.. أنا لَست أرضَىٰ مَن ذَبُل
وبَدَىٰ يؤنِبُني وسهْمُ الحُزن في قلبِي وظَل
كانَ الفَراغُ مُصفِّقًا ومع الشيَاطِين احتفَل
كانَت نَصَائِحه منَ الشيطَان يَا أختِي حِيَل
إيَّاكِ أن تقعِي بِهَا مهمَا أرَاد وكَم بَذَل
أفلَام عُهرٍ أو مَجَلَّات بِها سِرُّ الخَلَل
وصَديقَةُ السُّوءِ التي ترمِيكِ في وسطِ الوَحَل
جَرحُ العفَاف أُخيَّتي مهمَا تَداوىٰ ما أندَمَل
فَكِلي أمُورَك بِالإلَه الحَقِّ خالقِنا الأجَل
مَا ضَاعَ يا أختِي الذي بإلهِنا الهَادِي اتَّكَل

إنني أوجه نداء إلى كل العقلاء..

يا شباب الإسلام..

هل ذقتم حلاوة الأُخوَّة في الدين؟ هل شعرتَم يومًا بلذَّةِ الصحبة الصالحة؟ هل وقفتم يومًا علىٰ الراحة التي يجدها أصدقاء الإيمان وجلساء القرآن؟

كم نحن بحاجة إلىٰ هذه الصحبة والله، والله لولا الإخوان الذين يعينون الناس علىٰ الطاعة لتمنَّىٰ الناسُ الموتَ.

يا ربِّ لا تحرمني صحبةَ الخير
وارفع عنِ الظَّهرِ أثقالًا مِنَ الوُزْرِ
واكتبْ إلهي خِتَامي آخرَ العُمُرِ
حِينَ التِّلاوةِ أو في الشَّفعِ وَالوِتْرِ

* * *

توبة سلطان

دَعُوني أنقل لكم هذه الحادثة التي عايشتُهَا بنفسي، عاش «سلطان» حياةً سابقةً مليئةً بالمعاصي والآثام، وقع في الحبوب والمخدرات، واحترف السرقة والسلب.

اسألوا الشوارع والمتنزهات تنبؤكم عن آثاره.

بل حتىٰ والده لقد تبرأ منه، وأصبحت الشُّهور تمرُّ تلو الشهور وأقبل رمضان، وأقبلت معه نفحات الإيمان، صدقوني ليس رمضان البعيد بل رمضان ١٤٢٣ للهجرة.

رأىٰ «سلطان» إقبال الناس علىٰ الطاعة، سمع بكاءهم ونشيجهم، أبصر إقبالهم وإخباتهم، حدثته نفسه بالتوبة، وكانت البداية، ولكن لابد من صحبة طيبة تعينه.

وتعرف «سلطان» علىٰ صحبة طيبة في غرب مدينة الرياض، وضع قدمه علىٰ طريق السعادة، وبِهِمَّةِ الأبطال وعزيمة الشجعان الأشاوس، هجر أصدقاء السوء، وقاطع كل ذنب يغضب الجبار سبحانه.

زارني في المسجد والدموع تملأ عينيه، وقال: «أريد أن أحفظ القرآن».

قلتُ: «احمل الإخلاص والعزيمة، وسيرزقك الله مُنَاك».

وعكف في رمضان على القرآن.

لقد وجد «سلطان» الكثير من المضايقات، أصدقاء السوء يذكِّروه بالماضي، الليالي الحمراء، بل حتى والده كان إذا رآه قال: «ابتعد عني وإلا اتصلت على الشرطة، وأخبرتهم بوجودك».

« .. يا أبتاه، لقد تبت يا أبتاه»

ووالده لا يصدقه، حاول أخوه الأكبر أن يقنع الأب، لكنه لم يقتنع، والنتيجة لقد طُرِدَ «سلطان» من المنزل، كان المسجد هو مأواه، مصلاه، محرابه بالدموع والندم، وكان أخوه كثيرًا ما يساعده.

وفي موكب الصالحين كان سلطان يجد أنسه وراحته.

صدقوني، ربما تعجبتم مما سأقوله الآن، لقد أشرق وجه «سلطان» كثيرًا، «سلطان» خلال أسبوعين ونصف كان قد انتهى من حفظ ثلاث أجزاء، بل قارب الأربعة،

وكان يقول لي: بإذن الله لن تمر سبعة أشهر إلا وقد حفظت كتاب الله سبحانه وتعالىٰ حفظًا.

كنتُ أتعجَّبُ منه كثيرًا، همته العالية، صبره الدائم، تحمله للمشاقِّ، من أجل القرآن.

كان يلبس أجمل الثياب، كان يأكل أفضل الطعام، والآن والله ربما يمر اليوم الكامل وهو لم يتذوق شيئًا.

أقبل العيد و«سلطان» لا يزال يحدُو به شوقه إلىٰ حفظ القرآن، كيف لا وهو يعلم أن الماهر به كما قال ﷺ: **«مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ»**.

وفي منتصف يوم من الأيام، كان علىٰ الطريق الدائري، وانحرفت سيارته فجأة، وانفجرت الإطارات، وانقلبت السيارة عدة مرات، و...، و ...

لا تسألوا عن «سلطان»، لقد دخل إلىٰ حجرة العناية المركزة بالمستشفىٰ، فكسور في الظهر، وشروخ كثيرة في الجمجمة، ونزيف حادٌّ.

ومرَّتِ الأسابيع وهو علىٰ حاله من عملية إلىٰ عملية، والسرير الأبيض لا يفارقه، دمعت العيون كثيرًا علىٰ حاله،

ومُدَّت الأكفُّ بالدعاء له، حتى جاء الخبر أنه تشافى قليلًا، وأفاق من غيبوبته، وهو الآن في غرفة الجراحة، نَقَل إليَّ ذلك الخبر السار أخي «أبو مصعب»، قال لي: «حان وقت الزيارة» وقال: «ربما الدعاء اليسير يخفف شيئًا من معاناة أخينا».

ركبتُ السيارة كنت مطرق الرأس، و«أبو مصعب» يقص علي قصة حياة «سلطان» العجيبة.

وصلنا إلى المستشفى دخلنا قسم الجراحة، يا سبحان الله، كم نحن في نعم عظيمة مِنَ الله، سألنا، قالوا: هذه غرفة «سلطان»، دخلنا عليه، سلَّم عليه «أبو مُصَعب»، وسلَّمْتُ عليه، لم يكن يستطيع الحراك، جلستُ عند رأسه، أمسكتُ بكفِّه، وقلتُ له: «إذا أردتَ أن تقول: «نعم» فاضغط على يدي برفقٍ.

«لقد اشتقنا إليك يا «سلطان» -ضغط يده- كم نتمنى أن تعود إلينا، الشباب كلهم يسألون عنك، لكن لا تخف لن يضيِّعك الله، فالجميع يدعو لك، وأنت لقد هجرت طريق المعاصي فأبشر.

يا «سلطان» هيا شدَّ من عزمكَ فالمصحف ينتظرك،

يا «سلطان» حلقة القرآن تنتظرك، يا «سلطان» محرابك المسجد والرفقة الصالحة، الجميع في انتظارك».

ضغط على يدي ونزلت من عينيه دموع، لست أدري ما تفسيرها.

قرأتُ عليه يسيرًا من القرآن، وقرأ عليه أخي «أبو مصعب»، ثم ودَّعْنَاه، ودعونا له وانصرفنا.

مرَّتْ أيام قليلة، وبعد صلاة العصر زارتْهُ أمه وخالته، وجاء وقت المغرب، وفجأة تحرَّك «سلطان»، تكلَّم «سلطان»، طارت أمه من الفرح، وقال: «يا أمي ساعديني لِأتوضَّأَ».

قام، جرَّ قدميه بِثقلٍ، ساعدتْهُ أمه وخالته على الوضوء، ثم رجع على سريره، أذَّن لنفسه على السرير، وأحسن الجلوس، والأم لا تصدق ما تراه، ثم نظر إليهم النظرة الأخيرة، ابتسم وقال: «أشهد أنْ لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمدًا رسولَ الله».

وودَّع الحياة ..

والله .. ثم والله .. لقد كنتُ فيمن غسَّلَهُ في مغسلة ..

ذلك الوجه المشرق كان يشع نورًا وبهاءً، كل من حوله كان يقول: الله أكبر، الله أكبر، وكانت الجنازة أمرًا مهيبًا مشهودًا.

تقبَّل الله توبتك يا «سلطان»، وجمعنا بك وبنبيِّنا في الجنان، يا الله ما أحلاها من حياة، حينما تكون في صحبة أهل الخير، عندها تكون خاتمتك علىٰ ما يرضي الله.

يا شباب الإسلام، نريد موتًا شريفًا، نريد وداعًا للحياة بعزةٍ وإباءٍ.

يكفي موتًا علىٰ الدخان، يكفي هلاكًا علىٰ المخدرات.

يكفي والله .. يكفي والله ..

وأهلًا ومرحبًا بخاتمةٍ علىٰ القرآن ..

أو شهادة في سبيل الديَّان..

ما زِلتُ أبحَثُ في وجُوه النَّاس عن بعضِ الرجَال

عن عُصبَةٍ يقِفون في الأزمَات كالشُّمِّ الجبَال

فَإذَا تكلَّمت الشِّفاهُ سَمعْت مِيزَان المقَال

وإذَا تحرَّكتِ الرجَالُ رأيتَ أفعالَ الرجَال

أمَّا إذَا سكَتوا فأنظَارٌ لهَا وقع النبَّال

يَسعَون دومًا للعُلا بَل نحو الكمَال

يصِلُون للغايَات لو كانَت علىٰ بُعدِ المُحَال

ويحققون مفاخِرًا كانت خيالًا في خيَال
هِمَمٌ لَهم تسمُو إذا مَا رَامهَا نَجم الشمَال
أفكارهُم خطط تقُود الكُل نحوَ الاعتِدَال
لا يشتهون الدُّون أو أحوَال أشبَاه الرجَال
بل يَشتهون الخَوض في حربِ المُداوَلة السِّجَال
يتعشَّقُون الموتَ في أوسَاط سَاحَات القِتَال
ويرَون أنَّ الحرَّ عبْدٌ إن توجَّه للضَّلال
مَن لي بِفَردٍ مِنهم ثِقَةٍ ومحمُودِ الخِصَال؟؟
مَن لي بهِ يَا قوم إنَّ همُوم وجدَاني ثِقَال؟؟
سيطول بَحْثي إن سُؤْلي نادر صعب المنال
فَمَن الذي تَحوي معًا أوصافَه هَذي الخِصَال
لكنَّ عُذري أنَّ في الدُّنيَا قليلًا مِن الرجَال

فكونوا يا شباب الإسلام من أولئك الرجال.

وأنتنَّ يا فتيات المسلمين، كنَّ من الصالحات العظيمات.

اللّهُمَّ أصلح شباب المسلمين، واجعلهم بالصحابة مقتدين، واحفظهم من ضلال المضلين.

اللَّهُمَّ أصلح النِّساء والفتيات، واجعلهنَّ بالصحابيات مقتديات، واحفظهنَّ من التبرُّج والسفور، إنك علىٰ كل شيء قدير.

اللَّهُمَّ ارزقنا الصحبة الصالحة، واكتب لنا خاتمة حسنة يا حيُّ يا قيومُ.

اللَّهُمَّ انصر عبادك المجاهدين، وأعلي كلمة الحق والدين، واجعلنا أئمة للمتَّقين، إنك أنت السميع العليم، وصلىٰ علىٰ نبيِّنا محمدٍ وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

* * *